الفصل الثالث

علوم القرآن الكريم

- معنى علوم القرآن الكريم
- نزول القرآن الكريم
- أسباب النزول
- المكى والمدنى
- جمع القرآن الكريم
- ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره
- مصادر التفسير والعلوم التى يحتاج اليها المفسر
- الاسرائيليات . . ومدى الصلة بينها وبين القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

معنى علوم القرآن الكريم

العلوم جمع علم ، والعلم له اطلاقات ثلاث :

(أ) يطلق تارة ويراد منه المسائل .

(ب) ويطلق تارة أخرى ويراد منه ادراك هذه المسائل .

(جـ) ويطلق ثالثة ويراد منه الملكة .

والقرآن : قيل : مشتق من القرن بمعنى الضم . تقول قرنت الشيء بالشيء اذا ضممته اليه ، وذلك لقران السور والآيات فيه بعضها لبعض . وقيل : مشتق من القرء بمعنى الجمع . تقول قرأت الماء فى الحوض اذا جمعته فيه ، وذلك لأن القرآن جمع ثمرات الكتب السابقة . وقيل : إنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، ثم نقل من المصدرية وجعل علما على الكتاب المنزل على النبى ﷺ . وقيل غير ذلك .

وأياً ما كان ، فالقرآن هو كلام الله تعالى ، المنزل على النبى ﷺ المتحدى به ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس .

والمراد بعلوم القرآن : أنواع من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم ، من حيث نزوله ، ووجوه أدائه ، وجمعه ، وترتيبه ، وناسخه ، ومنسوخه ، ومحكمه ، ومتشابهه ، ومجازه ، وإعجازه ، وأحكامه ، وحكمه ، وأمثاله ، وقصصه ، وتفسيره ، وتأويله ، وغير ذلك من مباحثه الكثيرة .

* * *

● **نشأة هذا العلم وتطوره ، وأهم الكتب المؤلفة فيه :**

أولا : عصر ما قبل التدوين ، ويبدأ هذا العصر بنزول القرآن الكريم . وينتهى بنهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث : وفى هذه المرحلة كانت هناك بعض المباحث التى تتصل بالقرآن الكريم كالناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ووجوه القراءات ، يعلمها النبى ﷺ لأصحابه وهم يعلمونها لمن بعدهم من التابعين ، فكانت الرواية هى الأصل الأول الذى يقوم عليه تحمل هذا العلم خلفا عن سلف ـ شأن غيره من العلوم ـ حتى بدأ عصر التدوين .

ثانيا : من مبدأ عصر التدوين الى نهاية القرن السادس : وفى هذه المرحلة بدأ التأليف فى علوم القرآن ، ولكن لا على طريقة الشمول والاستقصاء لكل مباحثه ، فكانت هناك مؤلفات اقتصر مؤلفوها على موضوع واحد من موضوعات علوم القرآن ، تناولوها بالدراسة الشاملة الكاملة ، فمن ذلك : الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وأسباب النزول لعلى ابن أحمد الواحدى ، المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، وإعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، كما كانت هناك مؤلفات تناولت مباحث متعددة من علوم القرآن ، ومن ذلك كتاب « فنون الأفنان فى علوم القرآن » لأبى الفرج ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ثالثا : القرن السابع الهجرى ، وفى هذه المرحلة تطور التأليف فى علوم القرآن ، فشمل أنواعا متعددة وأكثر مما تناولها السابقون ومن أهم ما ألف فى هذه المرحلة كتاب « المرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز » لأبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .

رابعا : القرن الثامن الهجرى ، وفى هذه المرحلة ازدهر هذا العلم ، وتناولت المؤلفات التى دونت فيه مباحث أكثر وأشمل مما تناولته كتب المرحلة السابقة ولكن دون استيعاب أيضا ، ومن أهم هذه المؤلفات كتاب « البرهان فى علوم القرآن » لبدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، ضمنه سبعة وأربعين مبحثا من مباحث علوم القرآن ، وقد طبع هذا الكتاب من زمن قريب فى أربعة أجزاء كبار .

خامسا : القرن التاسع الهجرى ، وفى هذه المرحلة بلغ التأليف فى علوم القرآن حداً قارب النهاية ومن أهم ما ألف فى هذه المرحلة كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وقد ضمنه ثمانين مبحثا من مباحث علوم القرآن ، وهو يعتمد فى كثير من المباحث على كتاب « البرهان » للزركشى ، ويكثر من النقل عنه .

سادسا : من أول القرن العاشر الى عصرنا الحاضر : وفى هذه المرحلة الأخيرة تحركت همة بعض العلماء ، فألفوا فى علوم القرآن ، كتبا ضمنوها كثيرا من المباحث التى اشتملت عليها الكتب السابقة ، وزادوا مباحث أخرى لم يعالجها أسلافهم بحثا وتأليفا ، كمبحث ترجمة القرآن الكريم ، ومبحث الشبه التى أثيرت حول القرآن من بعض المستشرقين والملاحدة وتفنيدها.ومن هؤلاء المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى ، فقد ألف كتابا سماه « التبيان فى علوم

القرآن » ، والمرحوم الشيخ محمد على سلامه ، فقد ألف كتابا سماه « منهج الفرقان فى علوم القرآن » والمرحوم الشيخ عبدالعظيم الزرقانى ، فقد ألف كتابا سماه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » .

ولقد جدت أخيرا مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من أهمها : مبحث العلوم الكونية فى القرآن الكريم ، ومبحث الوضع فى تفسيره ، ومبحث الاسرائيليات ومدى صلتها بالقرآن الكريم ، ومبلغ أثرها فى تفسيره ، ولسوف نقتصر فيها نكتب على بعض مباحث علوم القرآن على قدر ما يتسع له وقتنا ، فنقول وبالله التوفيق :

obeikandl.com

نزول القرآن الكريم

● مراحل نزول القرآن الكريم ، ومعنى النزول فى كل مرحلة :

نزل القرآن على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نزوله الى اللوح المحفوظ ، ومعنى ذلك اثباته فيه جملة واحدة ، وفى ذلك جاء قول الله تعالى « **بل هو قرآن مجيد* فى لوح محفوظ** »(١) .

المرحلة الثانية : نزوله الى بيت العزة فى السماء الدنيا . ومعنى ذلك اثباته فيه جملة واحدة . قيل : وفى ذلك جاء قوله تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . . .** »(٢) . . وقوله « **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة . .** »(٣) ، وقوله: « **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** »(٤) ولا تعارض بين هذه الآيات ، لأن ليلة القدر هى الليلة المباركة ، وهى من شهر رمضان ، وقد روى الحاكم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ ، بعضه فى إثر بعض » .

المرحلة الثالثة : نزوله على النبى ﷺ ، ومعنى ذلك نزول حامله ـ وهو جبريل عليه السلام ـ به ليبلغه الى النبى ﷺ ، وفى ذلك جاء قوله تعالى « **نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين** »(٥) . وكان نزول القرآن فى هذه المرحلة مفرقا فى مدة ثلاث وعشرين سنة على ما هو المشهور ، وفى نزوله مفرقا جاء قوله تعالى « **وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** »(٦) .

* * *

● **الفرق بين هذه المراحل الثلاث** :

ومما تقدم يتضح أن الفرق بين المراحل الثلاث لنزول القرآن الكريم هو ما يلى :

---

(١) البروج ٢١ ، ٢٢
(٢) البقرة : ١٨٥
(٣) الدخان : ٣
(٤) القدر : ١
(٥) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤
(٦) الاسراء : ١٠٦

أولا : أن النزول فى المرحلتين الأوليين كان بمعنى الإثبات ، أما فى المرحلة الثالثة فهو عبارة عن نزول جبريل بالقرآن على النبى ﷺ .

ثانيا : أن النزول فى المرحلتين الأوليين كان جملة واحدة ، أما فى المرحلة الثالثة فكان مفرقا على حسب الحوادث والوقائع وحاجات الناس المتجددة .

* * *

● **كيف تلقى جبريل القرآن عن الله ، وكيف تلقاه النبى ﷺ عن جبريل ؟**

أما كيفية تلقى جبريل للقرآن عن الله ، فقيل إنه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ . وقيل ـ وهو الراجح ـ انه كان يتلقفه من الله تعالى تلقفاً إيمائياً لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ ، ومما يشهد هذا القول الأخير ما رواه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا الى النبى ﷺ قال « اذا تكلم الله بالوحى ، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهى الى الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : قال الحق ، فينتهى به حيث أُمِر » .

وأما كيفية تلقى النبى ﷺ للقرآن عن جبريل فكان على طريقتين (٧) :

أحداهما : أن النبى ﷺ كان ينخلع من حالته البشرية الى الحالة الملكية فيكلمه جبريل بالوحى ، ويعى عنه النبى ﷺ ما يقول . وهذه أشق الحالتين على رسول الله ﷺ .

ثانيتهما : أن جبريل كان ينخلع من صورته الملكية الى الصورة البشرية فيوحى الى النبى ﷺ ما شاء الله أن يوحى ، والرسول ﷺ يعى عنه ما يقول وكثيرا ما كان يأتى جبريل عليه السلام الى النبى ﷺ على صورة رجل من أصحابه اسمه : دحية الكلبى .

* * *

● **نزول القرآن على النبى ﷺ مفرقا ، وأدلة ذلك :**

تقدم أن القرآن نزل على النبى ﷺ مفرقا على حسب الوقائع والحوادث وحاجات الناس ، وأن ذلك كان فى مدة ثلاث وعشرين سنة على ما هو المشهور من أقوال العلماء ، فقد مكث عليه الصلاة والسلام يدعو الى ربه ، وينزل عليه الوحى ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة ، فتلك ثلاث وعشرون سنة .

---

(٧) يراجع حديث البخارى فى باب بدء الوحى « ... كيف يأتيك الوحى » الخ

ومما يدل على نزول القرآن مفرقا ما يلي :

أولا : قوله تعالى « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** »[٨] .

ثانيا : قوله تعالى « **وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا** »[٩] .

ثالثا : ما جاء في الأحاديث الصحيحة من أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى « **اقرأ باسم ربك الذي خلق . . .** » إلى قوله « **علّم الإنسان ما لم يعلم** »[١٠] . ثم سورة المدثر ، ثم تتابع الوحي على رسول الله ﷺ .

رابعا : ما جاء في القرآن من الآيات المبدوءة بقوله تعالى « **يسألونك . .** » نحو : « **يسألونك عن الخمر والميسر** »[١١] « **يسألونك عن الساعة أيّان مرساها** »[١٢] « **ويسألونك عن الروح** »[١٣] ومن المعلوم أن هذه الأسئلة لم توجه الى الرسول ﷺ في وقت واحد ، وانما وجهت اليه في أوقات مختلفة ، ويلزم من هذا بالضرورة أن تكون الآيات التي نزلت أجوبة لها نزلت في أوقات مختلفة كذلك .

* * *

● **نزول الكتب السماوية الأخرى جملة واحدة ، ودليل ذلك :**

المشهور بين العلماء أن الكتب السماوية الأخرى نزلت على الأنبياء جملة واحدة ويكاد ينعقد على ذلك اجماعهم .

وأقوى الأدلة على هذا قوله تعالى « **وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا** » . ووجه الدلالة في هذه الآية : أن الله سبحان رد على الكفار ببيان الحكمة التي من أجلها نزل القرآن مفرقا .

ولو كانت الكتب السماوية الأخرى نزلت مفرقة مثله لكان أقوى رد يمكن أن يجابوا به أن يقول مثلا « كذلك أنزلنا الكتب السماوية الأخرى مفرقة ، فلم آمنتم بها وكذبتم بالقرآن » ؟ كما رد عليهم حين قالوا ـ منكرين على الرسول ﷺ أن يأكل كما يأكل البشر ويمشي في الأسواق كما يمشي البشر ـ « **مال هذا**

---

(٨) الاسراء : ١٠٦
(٩) الفرقان : ٣٢
(١٠) العلق : ١ ـ ٥
(١١) البقرة : ٢١٩
(١٢) النازعات : ٤٢
(١٣) الاسراء : ٨٥

الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق »[١٤] بقوله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق »[١٥].

كما رد عليهم حين قالوا - مستبعدين أن يكون الرسول ﷺ بشرا - « هل هذا إلا بشر مثلكم »[١٦] بقوله « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[١٧].

***

● **حكمة نزول القرآن مفرقا :**

نزل القرآن على النبى ﷺ مفرقا لحكم جسيمة ، ومصالح عظيمة ، منها :

أولا : تثبيت قلب النبى ﷺ وقلوب أتباعه من المؤمنين ، فكان كلما حزبهم أمر ، وأهمهم شأن ، نزل من القرآن ما يكشف عنهم ، ويزيل همهم ويرفع همتهم ويشد عزمهم . وقد صرح القرآن بذلك فقال « **كذلك لنثبت به فؤادك** »

ثانيا : التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة والعادات السيئة .

ثالثا : التدرج فى بث العقائد الصالحة والعادات الحسنة .

رابعا : تيسير حفظه على الأمة .

خامسا : تيسير فهمه عليهم . وهذه الأربعة الأخيرة تدخل تحت قوله تعالى : « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** » أى على مهل وتؤدة وتثبت ، كما قاله الزمخشرى .

سادسا : مجاراة الحوادث فى تجددها ، فكم وقعت للمسلمين من حوادث فى أزمان مختلفة ، ولم يكن لهم علم بما يجب أن يلتزم بالنسبة لهذه الحوادث فكان القرآن ينزل ليوضح لهم حكمها ، ويبين لهم ما يجب أن يلتزموه ازاءها فمن ذلك : حادثة هلال بن أمية لما قذف زوجته بشريك بن سحماء ، فأنزل الله فيه آيات اللعان من سورة النور . ومن ذلك حادثة الإفك التى أشاع فيها المنافقون قالة السوء عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، فأنزل الله فى شأنها آيات من سورة النور تصرح ببراءتها وكذب المنافقين فيما رموها به ، وما يجب أن يؤخذوا به من العقوبة على ما كان منهم . ومن ذلك حادثة خولة بنت ثعلبة التى ظاهر منها زوجها فنزلت فيها آيات من أول سورة المجادلة ، تستنكر وقوع

---

(١٤) الفرقان : ٧

(١٥) الفرقان : ٢٠

(١٦) الانبياء : ٣

(١٧) الانبياء : ٧

الظهار من المسلمين وتبين حكمه ، وغير هذا كثير من الحوادث التى نزل القرآن ببيان أحكامها .

سابعا : اجابات السائلين الذين كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن بعض الأمور ، إما على سبيل الاستفسار والرغبة فى المعرفة ، كما كان عليه الشأن بالنسبة للمؤمنين ، كسؤالهم عن المحيض ، وسؤالهم عن الخمر والميسر ، وسؤالهم عن الأهلة . وإما على سبيل التثبت من رسالته عليه الصلاة والسلام ، كما كان عليه الشأن بالنسبة للكافرين ، كسؤالهم عن الروح ، وعن ذى القرنين .

ثامنا : تتبع المنافقين بكشف أسرارهم ، وابراز طوايا صدورهم وخفايا نفوسهم فقد كانوا يبطنون الكفر ويتظاهرون بالاسلام ، وكانوا لتغلغلهم بين المسلمين يعلمون الكثير من أسرارهم ، فأخذوا يدبرون لهم الشرور والمكائد ، وكان الله فوق ما يدبرون . فأطلع نبيه على خباياهم وكشف له عن نواياهم بما كان ينزله من الآيات التى أظهرتهم على حقيقتهم ، وفيهم نزلت سورة بتمامها ، وكانوا من أجل ذلك على حذر دائم وهَمّ مقلق من نزول القرآن بما يفضح سرهم ، وفى هذا يقول الله سبحانه « **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون** »[١٨] .

تاسعا : تعهد النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين بالتنبيه على ما وقع منهم من مخالفات ، فقد وقع من النبى ﷺ خلاف الأولى حيث سمح لمن استأذنه فى التخلف عن غزوة تبوك بالتخلف ، فنبهه الله الى ذلك بقوله « **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** »[١٩] . . إلخ

وكما وقع منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأولى بقبول أخذ الفداء من أسرى بدر فنبهه الله الى ذلك بقوله « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** . . »الخ[٢٠] .

وكذلك وقع من المسلمين مخالفات ، وكانت لهم أخطاء فنبههم الله عليها فمن ذلك أنهم فى غزوة حنين أعجبتهم كثرتهم حتى قال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فكانت الدائرة عليهم ، وقد نبههم الله إلى خطئهم هذا فقال « **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** » . . الخ [٢١] .

---

(١٨) التوبة : ٦٤
(١٩) التوبة : ٤٣
(٢٠) الأنفال : ٦٧
(٢١) التوبة : ٢٥

● **أول ما نزل وآخر ما نزل :**

لهذا البحث أهمية كبيرة لما يترتب على معرفته من الأمور الآتية :

أولا : معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن ، فاذا كان هناك آيتان متعارضتان وتعذر التوفيق بينهما ، وعرفت أولاهما نزولا وآخراهما نزولا أمكننا أن نحكم بأن الاية المتأخرة ناسخة لحكم الآية المتقدمة .

ثانيا : معرفة تاريخ التشريع الاسلامى .

ثالثا : معرفة التدرج فى تشريع الأحكام . وذلك كالآيات الواردة فى حكم الخمر .

ومن الثابت المقرر أن أول ما نزل وآخر ما نزل ليس بالأمر الذى يدخل تحت اجتهاد المجتهدين ، لأنه لا مجال للعقل فيه ، وانما ترجع معرفة ذلك الى النقل الصحيح عن النبى ﷺ أو عن الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن الكريم .

ثم إن أولية النزول وآخريته تارة تكون بالنسبة لما ورد من الآيات فى موضوع خاص ، كتحريم الخمر ، وتحريم الربا ، وفرضية الجهاد ، وغير ذلك من الموضوعات التى اشتمل عليها القرآن ، وتارة تكون الأولية والآخرية بالنسبة الى القرآن كله .

وليس من غرضنا أن نتكلم عن الأولية والآخرية بالنسبة لكل موضوع من الموضوعات التى تناولها القرآن ، لأن هذا أمر يطول الكلام فيه ، ويحتاج الى تتبعَ الروايات الكثيرة التى وردت فى ذلك ، ويكفى أن نتكلم عن الأولية والآخرية بالنسبة للقرآن كله فنقول :

● **أول ما نزل من القرآن :**

تعددت الروايات واختلفت فى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وأشهر ما صح فى ذلك : ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ، قالت: « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ـ رضى الله عنها ـ فتزوده لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « **اقرأ باسم ربك الذى**

خلق » ، حتى بلغ « ما لم يعلم » فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره » . . الحديث .

وهناك رواية ثانية رواها البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه تصرح بأن أول ما نزل من القرآن سورة المدثر ، ولكن هذه الرواية مع صحتها لا تعارض الرواية المتقدمة ، لأنها محمولة ، على أن المراد بأولية المدثر أولية مقيدة ، فالمراد أنها أول سورة نزلت بتمامها ، أو أول ما نزل بعد فترة الوحى ، ولعل الثانى هو أولى الاحتمالين ، لما جاء فى حديث جابر من قوله : فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله « يا أيها المدثر » وهذا صريح فى أن رؤية جبريل فى هذه المرة كانت بعد رؤيته له فى غار حراء وهى التى نزل فيها « اقرأ باسم ربك » .

وهناك رواية ثالثة رواها البيهقى تصرح بأن أول ما نزل من القرآن سورة الفاتحة ولكنها رواية مرسلة لا تقوى على معارضة الرواية الأولى المروية عن عائشة رضى الله عنها .

* * *

● آخر ما نزل من القرآن :

وكذلك تعددت الروايات واختلفت فى آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ولكن هذه الروايات على كثرتها ليس فيها شئ مرفوع الى النبى ﷺ ، وانما هى آثار مروية عن بعض الصحابة قالوها عن غلبة ظن منهم ، فمن هذه الأقوال : أن آخر ما نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا »(٢٢) .

ومنها : أن آخر ما نزل قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »(٢٣) .

ومنها : أن آخر ما نزل آية الدين وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . »(٢٤) الى آخر الآية .

ويظهر أن هذه الأقوال الثلاثة لا تنافى بينها : لأن هذه الآيات المذكورة يبدو أنها نزلت دفعة واحدة على حسب ترتيبها فى المصحف ، ولما كانت فى قصة واحدة أخبر كل واحد عن بعض ما نزل منها بأنه آخر ما نزل ، وعلى هذا فيمكن اعتبار هذه الأقوال قولا واحدا ، كما يمكن اعتبارها أصح من الأقوال

---

(٢٢) البقرة : ٢٧٨ (٢٣) البقرة : ٢٨١ (٢٤) البقرة : ٢٨٢

الآتية بعد ، لكثرة ما ورد فيها من روايات ولقوتها ورجحانها عما عداها .

ومن الأقوال الواردة فى آخر القرآن نزولا : ما ورد عن البراء بن عازب من أن آخر آية نزلت قوله تعالى « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة** »(٢٥) . وهذا القول محمول على أنها آخر ما نزل فى شأن المواريث .

ومنها : ما روى عن ابن عباس من أن آخر سورة نزلت « **إذا جاء نصر الله والفتح** » . وهذا القول محمول على أنها آخر ما نزل مشيرا الى وفاة النبى ﷺ . ، ومنها : ما روى عن أبىّ بن كعب من أن آخر آية نزلت قوله تعالى « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** . . » الى آخر سورة براءة(٢٦) ، وهذا القول محمول على أن هذه الآية وما بعدها آخر ما نزل من سورة براءة ، وبراءة آخر ما نزل فى شأن القتال .

وهناك أقوال غير ما تقدم لا نطيل بذكرها .

هذا ، وليس قوله تعالى « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** »(٢٧) . هو آخر ما نزل من القرآن كما قد يوهمه ظاهر قوله تعالى : « **أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى** » إذ ليس المراد إكمال أحكام الحلال والحرام ، لما صح من نزول أحكام حلال وحرام بعدها ، وإنما المراد إكمال الدين بإقرارهم فى البلد الحرام واجلاء المشركين عنه ، وهذا هو تمام النعمة عليهم ، كما أفاده ابن جرير فى تفسيره .

* * *

(٢٥) النساء : ١٧٦ (٢٦) التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ (٢٧) المائدة : ٣

أســـباب الـــنزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات إثر وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمــه .

وينقسم القرآن من حيث نزوله الى قسمين : قسم نزل ابتداء دون أن يتقدمه سبب من حادثة أو سؤال . وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال ، ليبين حكم هذه الحادثة أو جواب هذا السؤال .

● **فوائد معرفة أسباب النزول :**

ولمعرفة أسباب نزول الآيات فوائد كثيرة أهمها ما يلى :

(أ) معرفة الحكمة التى من أجلها شرع الحكم ، فمثلا اذا علم أن سبب نزول قوله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** . . »(1) الآية:هو أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا ودعا نفرا من الصحابة ـ وكانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا ، ولما دخل وقت المغرب قدموا أحدهم ليصلى بهم ـ وكانت الخمر قد لعبت برأسه ـ فقرأ فى صلاته « قل يا أيها الكافرون . أعبد ما تعبدون . وأنتم عابدون ما أعبد » بحذف حرف (لا) من الآيات،إذا علم أن هذا هو سبب نزول الآية علم أن شرعية الحكم الذى تضمنته ـ هو النهى عن قربان الصلاة فى حالة السكر ـ انما كان لحكمة باعثة على تشريعه ، وهى عدم التخليط فى الصلاة .

(ب) الوقوف على معنى الآية وازالة ما قد يشكل من معناها ، ولذلك قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها . وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية . فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب . ومن أمثلة ذلك : ما رواه الامام أحمد والنسائى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معدى كرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى (فى سورة المائدة بعد الآيات التى نزلت فى تحريم الخمر على الإطلاق) « **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا،والله يحب المحسنين** »(2) ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك ، وسبب نزولها : هو أن ناسا

(1) النساء : ٤٣ ، وراجع سبب نزولها فى تفسير النسفى .

(2) المائدة : ٩٣ .

قالوا ـ لما حرمت الخمر ـ كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهى رجس؟ فنزلت تبين حكم الله فيهم[٣].

(جـ) تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، دون التفات منه إلى عموم اللفظ، فمن يرى هذا الرأى لابد له من معرفة سبب نزول الآية حتى يخص به الحكم المستفاد منها، أما حكم غيره فهو ثابت بالقياس عنده.

(د) معرفة بقاء صورة السبب قطعا، وذلك عندما يكون لفظ الآية عاما ويقوم دليل على تخصيصه، فانه فى هذه الحالة متى عرف سبب النزول عرف ـ بصورة قاطعة ـ أن حكم الآية متناول له، وأنه لا يخرج من العام بالتخصيص.

(هـ) معرفة من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها، ولهذا أمثلة كثيرة فى القرآن منها: قوله تعالى «**أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا**»[٤] فمن عرف سبب نزول هذه الآية عرف أن لفظ «**الذى**» يراد به العاص بن وائل السهمى، ومنها قوله تعالى «**ذرنى ومن خلقت وحيدا**»[٥]. الخ فمن عرف سبب نزولها عرف أن لفظ «**من**» مراد به الوليد بن المغيرة المخزومى.

***

● **بم يعرف سبب النزول؟:**

لا مجال للعقل فى معرفة أسباب النزول، وانما طريق معرفة ذلك هو الرواية الصحيحة عمن شاهدوا نزول القرآن الكريم. قال الواحدى: لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل. ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجَدّوا فى الطلاب.

وقد قرر ابن الصلاح وغيره: أن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل اذا أخبر عن آية أنها نزلت فى كذا، فانه حديث مسند، أى أنه فى حكم المرفوع الى النبى ﷺ، وذلك لأن قول الصحابى فيما لا مجال للرأى فيه محمول على أنه سمعه من النبى ﷺ، وبعيد كل البعد أن يكون قد قال ذلك من تلقاء نفسه وبمحض رأيه.

أما ما يروى من أقوال التابعين فى أسباب النزول فانه يعد من قبيل المرفوع المرسل، فاذا اعتضد بمرسل آخر، أو كان التابعى من أئمة التفسير الآخذين

---

(٣) راجع الاتقان جـ١ ص ٣٠ (٤) مريم: ٧٧ (٥) المدثر: ١١

عن الصحابة قبل قوله ، وعلى الجملة فان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتحرزون من القول فى أسباب النزول بغير علم وتثبيت ، ومما يروى فى ذلك أن ابن سيرين رضى الله عنه قال : سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سدادا ، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن .

* * *

● إختلاف عبارات الرواة فى أسباب النزول :

تختلف عبارات الرواة فى أسباب النزول فتارة يقول الراوى : سبب نزول هذه الآية هكذا . وتارة يقول : نزلت هذه الآية فى كذا ، وفرق بين العبارتين ، فالعبارة الأولى نص صريح فى بيان السبب ، والعبارة الثانية ليست نصا فى بيان السبب ، وانما هى محتملة لأحد أمرين ، فتارة يراد بها بيان السبب ، وتارة يراد بها التفسير وبيان الحكم ، فما يذكره يكون داخلا فى الآية ولا يكون سببا لها .

* * *

● حكم ما إذا تعددت الروايات فى سبب النزول :

كثيرا ما تتعدد الروايات فى سبب النزول مع اتحاد عبارات الرواة فى ذلك أو مع اختلافها :

فان اختلفت عبارات الرواة بأن قال أحدهم : نزلت هذه الآية فى كذا ، وقال الآخر : سبب نزول هذه الآية كذا ، فالعبارة الثانية نص فى بيان السبب فتعتمد فى ذلك ، وأما العبارة الأولى فلا يعتمد عليها فى بيان السبب لأنها ليست نصا فيه ، وانما تعتبر بيانا لحكم الآية ما دام لفظها محتملا له .

وان اتحدت عبارات الرواة بأن قال أحدهم : نزلت هذه الآية فى كذا ، وقال الآخر : نزلت هذه الآية فى كذا ، وذكر غير ما ذكره الأول ، فان كانت الآية تحتمل كلا القولين حكمنا بصحتها ، لأن هذا من قبيل التفسير وبيان مضمون الآية ، وان كانت الآية تحتمل أحد القولين دون الآخر حكمنا بصحة ما تحتمله الآية وتركنا ما عداه .

أما إن اتحدت عبارات الرواة بأن قال أحدهم : سبب نزول هذه الآية كذا ، وقال الآخر : سبب نزول هذه الآية كذا ، وذكر سببا غير الذى ذكره الأول ، فهذه حالة تحتها أربع صور :

الصورة الأولى : أن يكون اسناد أحد القولين صحيحا ، واسناد القول الآخر غير صحيح . وحكم هذه الصورة أننا نعتمد الصحيح دون غيره .

الصورة الثانية : أن يكون اسناد كل من القولين صحيحا ولكنه يمكن ترجيح أحدهما على الآخر بوجه من وجوه الترجيح . وحكم هذه الصورة ، أننا نعتمد الراجح دون المرجوح .

الصورة الثالثة : أن يكون اسناد كل من القولين صحيحا ولا مرجح لأحدهما على الآخر ، غير أنه يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معا لما بينهما من تقارب . وحكم هذه الصورة أننا نعتمد كلا القولين ، ويحمل ذلك على تعدد الأسباب لآية واحدة ما دامت الآية مفيدة لحكم السببين أو الأسباب .

الصورة الرابعة : أن يكون اسناد كل من القولين صحيحا ، ولا مرجح لأحدهما على الآخر ، ولا يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معا . وحكم هذه الصورة أننا نعتمد كلا القولين ، ويحمل ذلك على تكرر نزول الآية ، عقب كل من السببين ، فمثلا روى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال : «لأمثلن بسبعين منهم مكانك»فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل « **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** . . » إلى آخر السورة ، وروى الترمذي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله « **وإن عاقبتم** . . » فالرواية الثانية تقتضي نزولها يوم فتح مكة ، ولا مخرج من هذا التنافي ـ بعد ما ثبت من صحة الروايتين وعدم رجحان احداهما على الأخرى ـ إلا بأن نقول : إن الآية نزلت أولا يوم أحد لبيان الحكم الذي تضمنته ، ثم نزلت ثانيا يوم فتح مكة تذكيرا لهم بهذا الحكم في وقت كان يُخشى أن تأخذهم فيه نشوة النصر فيغفلوا عن حكم الله .

* * *

● قد تنزل آيات متعددة لسبب واحد :

قد تنزل آيات متعددة ومتفرقة بناء على سبب واحد ، وذلك عكس ما تقدم في الصورة الثالثة من تعدد الأسباب لآية واحدة ، ومن أمثلة تعدد الآيات لسبب واحد : ما رواه الترمذي عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله « **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم في ذكر أو أنثى ، بعضكم من**

بعض . . » الآية[٦] ، وما رواه الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت : قلت يا رسول الله ، تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت « **إن المسلمين والمسلمات** . . »[٧] ، وأنزلت « **أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** » فهاتان آيتان إحداهما فى سورة آل عمران ، والأخرى فى سورة الأحزاب ، وكلتاهما نزل لسبب واحد هو كلام أم سلمة رضى الله عنها .

* * *

● **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :**

اذا نزلت الآية بلفظ يفيد العموم وكان سببها خاصا ، فجمهور العلماء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وذلك كآيات اللعان مثلا جاءت بلفظ يفيد العموم وهو قوله تعالى « **والذين يرمون أزواجهم** »[٨] إلخ مع أنها نزلت فى حادثة خاصة وهى قذف هلال بن أمية لزوجته بشريك بن سحماء ، فحكم الآية وهو اللعان يتناول كل من قذف زوجته ولم يكن له شهداء على ذلك ، فيشمل هلال بن أمية وغيره ، ولا يختص به دون غيره من قذفة زوجاتهم

وقد استدل الجمهور على مذهبهم هذا بأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد استدلوا فى وقائع كثيرة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، فجعلوا حكمها متناولاً لكل من يدخل تحت عموم اللفظ ولم يقصروه على من نزلت فيه الآية . وكذلك استدل الجمهور على ما ذهبوا اليه بأنه لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ لكانَ معنى ذلك استعمال اللفظ العام فى معنى خاص بدون فائدة ، وهذا خلاف الأصل وخروج عن المألوف من أساليب العرب .

أما غير الجمهور ، فقد ذهبوا الى أن العبرة بخصوص السبب دون التفات الى ما يفيده اللفظ من العموم ، ومعنى هذا أن الآية خاصة بمن نزلت فيه فحكمها يتناوله وحده بالنص ، أما غيره ممن على شاكلته فحكمه نفس الحكم ، لكن بطريق القياس على صورة السبب لا بطريق النص القرآنى، ولأصاب هذا الرأى أدلة واهية مردودة ، نعرض عنها ولا نطيل بذكرها .

* * *

---

(٦) آل عمران : ١٩٥

(٧) الأحزاب : ٣٥

(٨) النور : ٦

المكى والمدنى

عنى العلماء من قديم بمعرفة المكى والمدنى من القرآن الكريم ، وكان عبدالله بن مسعود من أعلم الصحابة بذلك ، ولقد روى البخارى عنه أنه قال : والله الذى لا إلٰه غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه .

● **فائدة معرفة المكى والمدنى :**

ولمعرفة المكى والمدنى فائدة مهمة ، هى : معرفة الناسخ والمنسوخ من أحكام القرآن الكريم ، فإذا تعارضت آيتان ولم يمكن الجمع بينهما ، وتبين لنا أن إحداهما مكية والأخرى مدنية ، حكمنا بأن الآية المدنية ناسخة لحكم الآية المكية ، لأن المدنية متأخرة ، والمكية متقدمة ، والمتأخر ينسخ المتقدم . وما وقع من اختلاف العلماء فى بعض السور هل هى مكية أو مدنية ، فأمره هيّن ، لأن ذلك على قلته قد وقع فى السور التى ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، ومع ذلك فالخلاف الواقع فى بعض السور لا يعتد به .

* * *

● **اصطلاحات العلماء فى بيان المكى والمدنى :**

للعلماء فى بيان المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة :

أولها : أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، ولو كان نزوله فى غير مكة . والمدنى ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله فى غير المدينة ، وعلى هذا فما نزل فى طريق المدينة قبل وصول النبى ﷺ اليها فهو من المكى ، وما نزل فى مكة عام الفتح من قوله تعالى « **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** . . »[١] . وما نزل فى عرفة عام حجة الوداع من قوله « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** . . »[٢] فهو من المدنى ، وكذا كل ما نزل على النبى ﷺ فى أسفاره بعد الهجرة ، وهذا الاصطلاح ملاحظ فيه الزمان ، وهو المشهور بين العلماء لأنه مطرد وحاصر للأقسام .

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) المائدة : ٣

ثانيها : أن المكى : نزل على النبى ﷺ فى مكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى : ما نزل عليه فى المدينة ، ويدخل فى مكة ضواحيها كمنى وعرفة والحديبية ، كما يدخل فى المدينة ضواحيها كأحد ، وسلع . وهذا الاصطلاح ملاحظ فيه المكان ، وليس له شهرة الاصطلاح الأول ، لأنه غير حاصر ، ويلزمه وجود قسم ثالث لا هو من قبيل المكى ، ولا هو من قبيل المدنى ، وذلك كالآيات التى نزلت على النبى ﷺ فى أسفاره كتبوك وغيرها .

ثالثها : أن المكى : ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى : ما كان خطابا لأهل المدينة وعلى هذا يحمل قول من قال : ما كان فى القرآن من « **يا أيها الناس** » فهو خطاب لأهل مكة . وما كان فيه من « **يا أيها الذين آمنوا** » فهو خطاب لأهل المدينة . وهذا الاصطلاح ملاحظ فيه المخاطب ، وهو أيضا ليس فى شهرة القول الأول ، لأنه غير مطرد : فسورة البقرة فيها « **يا أيها الناس** » وهى مدنية ، وسورة النساء مبدوءة بـ « يا أيها الناس » وهى مدنية أيضاً .

هذا وقد بين لنا العلماء السور المكية ، والسور المدنية ، والسور التى اختلف فى كونها مكية أو مدنية ، كما أنهم بينوا لنا الآيات المدنية التى وقعت فى السور المكية ، والآيات المكية التى وقعت فى السور المدنية . على اختلاف بينهم فى بعض ذلك .

وقد نقل السيوطى عن ابن الحصار : أن السور المدنية باتفاق عشرون سورة ، وأن السور المختلف فيها اثنتا عشرة ، وما عدا ذلك مكى باتفاق .
فأما السور المدنية باتفاق فهى : سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقون ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

وأما المختلف فيها فهى : الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطفيف ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والاخلاص ، والمعوذتان .

وأما المكى باتفاق فهو ما عدا ما تقدم ، وهو اثنتان وثمانون سورة ، وقد نظم ابن الحصار ذلك كله فى أبيات من الشعر ذكرها السيوطى فى الإتقان(٣) .

***

(٣) الجزء الأول ص ١١ ، ١٢

● **ضوابط معرفة المكى والمدنى :**

أهم ما يعتمد عليه فى معرفة المكى والمدنى من القرآن الكريم هو النقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وهناك ـ عدا النقل الصحيح عن الصحابة والتابعين ـ ضوابط كلية لكل من المكى والمدنى ، واليك بيانها :

أولا ـ ضوابط المكى :

(أ) كل سورة فيها « كلا » مكية ، وقد وردت فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة ، فى خمس عشرة سورة ، كلها فى النصف الأخير من القرآن .

(ب) كل سورة فيها السجدة مكية ما عدا الحج .

(جـ) كل سورة فى أولها حروف المعجم مكية ما عدا البقرة وآل عمران باتفاق ، وفى الرعد خلاف .

(د) كل سورة فيها قصة آدم وابليس مكية ما عدا البقرة .

(هـ) كل سورة فيها قصص الأنبياء السابقين والأمم الماضية مكية ما عدا البقرة .

(و) كل سورة فيها « يا أيها الناس » وليس فيها « **يا أيها الذين آمنوا** » مكية .

ثانيا ـ ضوابط المدنى :

(أ) كل سورة فيها أمر بالقتال مدنية .

(ب) كل سورة فيها بيان الحدود والفرائض مدنية .

(جـ) كل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية ما عدا العنكبوت .

***

● **مميزات كل من المكى والمدنى :**

كل من يتتبع سور القرآن الكريم وآياته يستطيع بكل سهولة ويسر أن يلحظ تميز كل من مكى القرآن ومدنيه بمميزات خاصة ، هى فى واقع الأمر نتيجة لمراعاة مقتضى حال الخاطبين بالقرآن الكريم ، واليك بيان هذه المميزات لكل من القسمين :

أولاً : مميزات القسم المكى :

(أ) الدعوة الى أصول العقائد ، من وجوب الإيمان بالله وصفاته ، والإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتب السماوية ، والإيمان بالملائكة ، واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وعذاب ونعيم . . . الخ .

(ب) محاجة المشركين وابطال معتقداتهم ، وتسفيه أحلامهم ، وتقبيح عاداتهم ، واقامة البراهين على ما جحدوه من الألوهية والنبوة وما يتبعهما من المعتقدات السليمة .

(جـ) الدعوة الى أصول التشريع العامة ، وقواعد الأخلاق الفاضلة ، وهى كل ما يتعلق بحفظ النفس ، والمال ، والعقل ، والعرض ، والدين .

(د) ذكر قصص الأنبياء السابقين ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم ، وما كان من عاقبة الأنبياء وأتباعهم المؤمنين من النصر والظفر ، وما كان من عاقبة المكذبين من الهلاك والدمار ، ليكون من وراء ذلك عبرة وعظة للواقفين فى سبيل دعوة النبى محمد ﷺ ، وبشارة وتسلية للنبى ﷺ ، ولمن معه من المؤمنين .

(هـ) قصر أكثر آياته وسوره ، وذلك هو المناسب لمقتضى الحال ، فأهل مكة كانوا أهل بلاغة وفصاحة ، كما كانوا أهل عناد واستكبار ، فناسبهم أن يخاطبوا بهذه الجمل القصيرة البليغة ، المليئة بالزجر والوعيد ، المشتملة على التقريع والتهديد ، ولقد كانت لشدة وقعها تصخ آذانهم ، وتعطل أذهانهم ، وتعقل بيانهم ، لما جمعت من قوة المعنى مع ايجاز اللفظ ، حتى قال الوليد ابن المغيرة فى القرآن رغم كفره قولته المشهورة : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر » .

ثانيا ـ مميزات القسم المدنى :

(أ) بيان قواعد التشريع بالنسبة للعبادات والمعاملات ، كأحكام الصلاة ، والزكاة والحج ، والنكاح ، والطلاق ، والبيع ، والربا ، والرهن . . . الخ .

(ب) محاجة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وبيان ما كان منهم من انحراف فى العقيدة ، وتحريف لأحكام الله وذلك لوجود جماعة كثيرة من اليهود والنصارى فى المدينة وما جاورها .

(جـ) بيان حال المنافقين ، والكشف عن أسرارهم لكثرة وجودهم بين المسلمين فى المدينة .

(د) ذكر أحكام القتال ، وما يتعلق به من الصلح ، والغنائم ، والأسرى . . الخ .

(هـ) طول أكثر سوره وآياته لاشتمالها على بيان الأحكام وتوضيحها ، وذلك ـ فى الغالب ـ يقتضى الإطناب ، والتفصيل .

* * *

● **الشبه التى أثيرت حول كل من المكى والمدنى وردها :**

كثيرا ما أثار . ويثير أعداء الاسلام الشكوك والأوهام حول القرآن الكريم ، قصدا الى زعزعة عقائد المسلمين ، وتشكيكهم فى كتابهم الذى جعل الله فيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة « **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** »[٤] .

ولقد حاول المشركون فى أول الدعوة ... التشكيك فى القرآن ، بزعمهم أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين ، ولكن لم يفلحوا فى حملتهم على القرآن ، بل سرعان ما دخلوا فى دين الله أفواجا عن عقيدة واقتناع ، وها هم أولاء أعداء الاسلام يبذلون جهدهم ، ويشيعون أضاليلهم ، ولا يدخرون وسعا فى العمل على حجب هذا النور المنبعث من القرآن الكريم بما يتقولونه عليه ، والقرآن هو القرآن بنوره وهديه ، وسيبقى على ذلك أبد الآبدين ، ولو كره الكافرون .

وها هى أهم الشبه نسوقها ونعقب عليها بالرد والتفنيد :

● **الشبهة الأولى** : قالوا : ان القسم المكى قصير السور ، قصير الآيات ، وأما القسم المدنى فانه طويل السور طويل الآيات ، والسبب فى هذا الاختلاف انما هو تأثر محمد ﷺ بالبيئة ، وأما أهل المدينة ، فكانوا إما أهل كتاب أو متصلا بأهل الكتاب ، ولديهم القدرة على انشاء العبارات الطويلة ، فلما كان محمد ﷺ بمكة تأثر بأسلوب أهلها فجاء القسم المدنى على نهجه فى الطول ، وغرضهم بهذا أن يثبتوا كون القرآن من عند محمد ﷺ وليس من عند الله عز وجل .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

(أ) إن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذى هو عماد البلاغة ، وليس تابعا للبيئة ولا متأثرا بها كما يدعى هؤلاء المضللون .

(ب) إن دعوى أن أهل مكة لم تكن عندهم القدرة على انشاء العبارات الطويلة خلافا لأهل المدينة ، دعوى يكذبها الواقع والتاريخ ، فإلى أهل مكة كان يرجع خطباء العرب وشعراءهم للحكومة بينهم أيهم أبلغ مقالا ، وأفصح بيانا ، وما هذا إلا لأنهم كانوا فرسان البلاغة والفصاحة من بين قبائل العرب كلها .

(جـ) تحدى القرآن العرب جميعا ، تحداهم فى آيات بعضها مكى وبعضها

---

(٤) التوبة : ٣٢

مدنى ، فقد جاء فى سورة هود المكية قوله تعالى : « **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** »[٥] وجاء فى سورة الإسراء المكية قوله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »[٦] ، وجاء فى سورة البقرة المدنية قوله تعالى « **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** »[٧] فلو أن محمداً ﷺ كان متأثراً بأهل مكة أو بأهل المدينة فى أسلوبه لقدروا على معارضة القرآن وجاءوا ولو بمثل أقصر سورة منه وهى سورة الكوثر ، ولكن ثبت بيقين عجزهم جميعا عن معارضة القرآن ، فكيف يقال بعد ذلك أن محمداً ﷺ تأثر بأسلوب أهل مكة والمدينة فجاء بالقرآن من عند نفسه وعلى نهج أسلوبهم ، ثم نسبه كذبا إلى الله ؟ !! . .

(د) هذه الشبهة مردودة من أساسها ، اذ أن بعض السور المكية طويلة فى ذاتها وطويلة فى آياتها ، وذلك كسورة هود وسورة يوسف ، كما أن بعض السور المدنية قصيرة فى ذاتها ، قصيرة فى آياتها ، وذلك كسورة : الزلزلة ، وسورة النصر .

● **الشبهة الثانية** : قالوا : إن القسم المكى خال من التشريعات التفصيلية والأحكام العملية ، وأما القسم المدنى فقد كثرت فيه هذه التشريعات ، وذلك لأن محمداً ﷺ بعد أن هاجر الى المدينة اختلط بأهل الكتاب ، وعرف تشريعاتهم ، فنهج على منهجهم ، وهذا دليل على أن محمداً ﷺ تأثر بالبيئة ، وبالتالى دليل على أن القرآن من عنده وليس من عند الله .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن القرآن الكريم نزل أول ما نزل فى مكة على قوم لا يقرون بأصول الإيمان من توحيد الله تعالى ، والإيمان برسله واليوم الآخر ، وكانوا مع ذلك لا يحترمون نفسا ولا عرضا ولا مالا ، فكان من الحكمة أن يقتصر القرآن فى مكة على دعوة أهلها إلى أصول الإيمان وإلى قواعد الأخلاق العامة ، وليس من الحكمة أن يدعوهم الى الأحكام التفصيلية وهم بعد لا يعترفون بالأصول ولا يقيمون لها وزنا ، أما أهل المدينة فكانوا قد آمنوا بأصول العقائد والأخلاق ، فكان من الحكمة ـ وهذه حالهم ـ أن يدعوهم إلى الأحكام التفصيلية والى نظم المعاملات الحقة التى تكون بينهم وبين خالقهم ، وبين بعضهم وبعض .

---

(٥) هود : ١٣
(٦) الإسراء : ٨٨
(٧) البقرة : ٢٣

● **الشبهة الثالثة** : قالوا : إن القسم المكى مشتمل على الوعيد والتهديد والقسوة والشدة ، والعنف والحدة ، أما القسم المدنى فيشتمل على الملاينة والملاطفة ، والصفح والعفو ، وهذا دليل على تأثر القرآن بالبيئة ، فأهل مكة كانوا أهل عنف وشدة ، وأهل المدينة كانوا أهل يسر ولين ، ومعنى هذا أن القرآن من صنع محمد ﷺ وليس من عند الله .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن لين الأسلوب وشدته ليس بالأمر الذى يخضع لأثر البيئة ، وانما يتبع الأسلوب مقتضى حال المخاطب به ، ففى بعض المواطن يقتضى حال المخاطب أن يكون أسلوب خطابه قاسيا عنيفا ، وفى بعضها يقتضى حال المخاطب أن يكون أسلوب خطابه هينا لينا ، وفى كثير من الآيات المكية نجد الأسلوب فى غاية الملاينة والملاطفة ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى من سورة الأعراف المكية « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** »[٨] وكما جاء فى سورة فصلت المكية قوله تعالى « **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** » إلى أن قال « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** »[٩] ، كما أنه فى كثير من الآيات المدنية نجد أساليب القرآن عنيفا قاسيا ، وذلك كما فى قوله تعالى فى سورة التوبة المدنية « **إلّا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير** »[١٠] وقوله فيها : « **وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم** »[١١] .

● **الشبهة الرابعة** : قالوا : إن القسم المكى قد كثر فيه القسم بالأشياء المحسوسة من الأمكنة والأزمنة ، والكواكب ، والثمار ، وغير ذلك ، وما ذاك الا لأن أهل مكة قوم لا تعدو مداركهم المحسوسات ، أما أهل المدينة فمداركهم تعلو على المحسوسات ، ولذا جاء أسلوب القرآن فى القسم المدنى خاليا من القسم بها .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن دعوى أن أهل مكة لا تعدو مداركهم المحسوسات دعوى لا تقوم على أساس صحيح ، فأهل مكة كانوا من أرقى العرب فهما وإدراكاً ، وكيف ينسبون الى عدم ادراك ما فوق المحسوس مع أن

---

(٨) الأعراف : ١٩٩
(٩) فصلت : ٣٠ ـ ٣٤
(١٠) التوبة : ٣٩
(١١) التوبة : ١٠١

الله سبحانه قد طالبهم بالايمان به وبصفاته وباليوم الآخر وما فيه ، فهل يعقل أن من يطالب بالإيمان بهذه المغيبات لا يدرك ما وراء الحس ؟ اللهم إن هذا كذب وبهتان .

نعم كثر القسم بالمحسوسات فى القسم المكى ، وخلا القسم المدنى من ذلك ، والسر فى هذا هو أن أهل مكة كانوا لا يؤمنون بالله سبحانه ولا بما له من صفات كالقدرة وغيرها ، فكان من الحكمة أن يوجه الله سبحانه أنظارهم الى ما بثه فى الكون من آياته وعجائب مخلوقاته ، ليأخذوا منها الأدلة على وجوده سبحانه ، وعلى أنه الإله الواحد القادر ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

● **الشبهة الخامسة** : قالوا إن القسم المكى قد افتتح كثير من سوره بألفاظ غير ظاهرة المعنى مثل ((ألم)) و ((حم)) و ((طسم)) وغيرها من فواتح السور المفتتح بالحروف الهجائية والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد واشتمال القرآن عليها ينافى كونه هدى للناس وإلا فأى هداية تقع بأمثال هذه الحروف التى لا تفيد معنى فهى لا تعدو أحد أمرين :

إما أن تكون رموزاً قد قصد بها التهويل والتعمية وإظهار القرآن فى مظهر مخيف .

وإما أن تكون رموزاً قد وضعت للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا . بل تجاوز بعضهم حد الطعن فقال إن هذه الألفاظ مما وضعه اليهود من كتبة محمد ﷺ ومعناها « أوعز إلى محمد » أو « أمرنى محمد » والذى حملهم على زيادتها تبرؤهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته . هذا ما يقوله الطاعنون على فواتح السور والغرض منها التشكيك فى القرآن .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

(أ) أما دعوى أن هذه الفواتح ليس لها معنى وأن اشتمال القرآن عليها لا يفيد فإنها دعوى من لم يطلع على آراء العلماء فى فواتح السور . وأكثر العلماء على أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها . وقد وردت آثار كثيرة تفيد ذلك فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من قرأ حم السجدة حُفِظَ إلى أن يصبح » وروى عنه أيضا أنه قال « يس قلب القرآن » وقد اشتهرت بعض السور بالتسمية بفواتحها . ولا يرد اشتراك بعض السور فى فاتحة واحدة لأن

ذلك لا ينافى كونها اسماً للسور كالأعلام المشتركة اشتراكا لفظياً . وهذا معهود فى اللغة العربية ويضم إلى كل اسم ما يميز مسماه عن غيره مثل (ألم) البقرة ، (ألم) آل عمران وهكذا .

وعلى ذلك فتكون هذه الأسماء مفيدة لمعنى معلوم عند المخاطَبين . ويدل على هذا الرأى ـ خلاف الآثار السابقة وشهرة التسمية ـ أنه لو لم تكن العرب قد فهموا منها مدلولاً لكانوا أول من أنكر ذلك على النبى ﷺ . مع أن النبى ﷺ قد تلا عليهم حم ، طسم ، ألم وغيرها ولو أنكروا لنُقل الينا ذلك فعدم إنكارهم دليل على أنهم كانوا يفهمون منها معناها . كيف وقد كانوا حريصين على وجود هفوة أو ذلة يشهرون بها . وأيضا فالرسول ﷺ قد تحداهم بالقرآن غير مرة فكيف يقع التحدى بما لا معنى له من الكلام ويسكتون على ذلك ؟ واذا ثبت أنها لمعنى مفهوم لم تكن من قبيل المهمل . ولا تنافى كون القرآن هدى وبيانا للناس .

(ب) وأما قوله:إنها رموز وضعت للتمييز بين المصاحف فألحقها مرور الزمن بالقرآن فيرده أن الصحابة جمعوا القرآن ولم يدخلوا فيه إلا ما ثبت قرآنه بالتواتر عن رسول الله ﷺ وبقى ذلك متواترا الى اليوم .

(جـ) أما قول بعض الطاعنين : إنها من وضع اليهود الذين كانوا يكتبون لمحمد ﷺ فهذه دعوى ساقطة عن الاعتبار ضرورة أنه لم يعرف فى أى تاريخ أن النبى ﷺ كان له كتبة من اليهود فهذا مجرد اختلاق على الحقيقة والتاريخ . وعلى فرض صحة ذلك ففى أى لغة يكون آلم أو كهيعص أو طسم أو غيرها بمعنى « أوعز إلى محمد » أو « أمرنى محمد » هذا زعم كاذب وقول لا وجود له إلا فى وهم مخترعه .

● **الشبهة السادسة** : قالوا : ان القسم المكى خال من الحجج والبراهين بخلاف القسم المدنى فإنه هو الذى جاء بالحجة والبرهان . وهذا يدل على تأثر القرآن بالوسط الذى كان فيه محمد ﷺ .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

(أ) ان هذا زعم من لم يدرس القرآن ولم يعرف مكيه من مدنيه ، فإنه لو نظر قليلاً لوجد القسم المكى مملوءاً بالحجج والبراهين على توحيد الله وعلى البعث والنبوات التى تبهر العقول ، وتأخذ بالألباب وتهدى الضال . وان شئت نموذجا من براهين القسم المكى فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأنبياء المكية

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » [١٢] . وقوله تعالى فى سورة الروم المكية « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إلى قوله « وله من فى السموات والأرض ، كل له قانتون »[١٣] وقوله تعالى فى سورة النمل المكية « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون » الى قوله تعالى « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[١٤] ولو تتبعنا سور القرآن المكية لوجدنا أكثرها لا يخلو من حجة ودليل فدعوى خلو القسم المكى من الحجاج قول من لم يكلف نفسه مؤونه النظر فى القرآن ولكنه يرجم بالغيب ولا يدرى ماذا يقول .

هذه خلاصة الشبه وردها وقد اقتصرنا على ما ذكر ليكون نموذجا لغيره والله الموفق للصواب .

***

(١٢) الأنبياء : ٢٢

(١٣) الروم : ٢٠ ـ ٢٦

(١٤) النمل : ٦٠ ـ ٦٤

جمع القرآن الكريم

ورد جمع القرآن الكريم على معنيين :

الأول : جمعه بمعنى حفظه ، ومنه قوله تعالى فى سورة القيامة « **إن علينا جمعه وقرآنه** »[1] أى جمعه فى صدرك ، واثبات قراءته فى لسانك . ومنه أيضا ما رواه البخارى عن قتادة قال : « سألت أنس بن مالك رضى الله عنه عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، قال : « أربعة كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » ، والمراد - والله أعلم - أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن تلقينا من رسول الله ﷺ ، أما غيرهم من الصحابة الذين حفظوا القرآن - وهم كثير - فقد حفظوا بعضه تلقيناً من الرسول ﷺ ، وبعضه الآخر عن اخوانهم من الصحابة .

الثانى : جمعه بمعنى كتابته ، وقد كتب القرآن الكريم ثلاث مرات فى ثلاثة عهود :

أولها : عهد النبى ﷺ .

ثانيها : عهد أبى بكر رضى الله عنه .

ثالثها : عهد عثمان رضى الله عنه .

ونتكلم عن جمع القرآن - بمعنى كتابته - فى كل عهد من هذه العهود الثلاثة فنقول :

أولا - جمع القرآن على عهد النبى ﷺ :

نزل القرآن الكريم على النبى ﷺ مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان كلما نزلت عليه آية أو أكثر دعا بعض من يكتب له الوحى وأمره بكتابة ما نزل ، وكانوا يكتبونه فى الرقاع واللخاف والعسب والأكتاف[2] ، ولم يمت رسول الله ﷺ إلا والقرآن كله قد كتب بين يديه بواسطة كتاب الوحى . ولقد كان بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم ما تيسر لهم من القرآن ، وكان بعضهم يعتمد على الحفظ ولا يكتب منه شيئا .

(١) القيامة : ١٧

(٢) الرقاع : جمع رقعة ، وكانت من الجلد فى هذا العهد ، واللخاف : جمع لخفة وهى الحجارة الرقيقة البيضاء ، والعسب : جمع عسيب وهو جريد النخل كان يكشط من عليه الخوص ويكتب على الناحية العريضة منه .

● **الباعث على كتابة القرآن فى عهد النبى ﷺ :**

والسبب الباعث على جمع القرآن فى عهد النبى ﷺ انما هو تبليغ الوحى على الوجه الأكمل ، إذ أن حفظ الصحابة للقرآن الكريم لا يتحقق به وحده ما ضمنه الله له من الحفظ الذى نوّه عنه فى سورة الحجر بقوله « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** »[٣] ، فكان لا بد للإبقاء على سلامة القرآن من ضياع شيء منه بسبب النسيان أو موت بعض حفظته من أن تنضم الكتابة الى الحفظ لأن الكتابة باقية لا يتطرق اليها ما يتطرق الى المحفوظ من نسيان ونحوه ، وبهذا يكون قد اجتمع على حفظ القرآن عاملان هما : الحفظ والكتابة .

● **مميزات جمع القرآن على عهد النبى ﷺ :**

ويمتاز جمع القرآن على عهد النبى ﷺ بالمميزات الآتية :

١ ـ أنه لم يكن مجموعا فى مصحف واحد ، بل كان مفرقا فى الرقاع واللخاف والعسب والأكتاف .

٢ ـ أنه لم يكن مرتب السور والآيات ، لأنه كتب أولا بأول على حسب نزوله ، وترتيب القرآن المعروف لنا ليس على حسب النزول بإجماع . نعم ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أمر من يكتب له الوحى أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا ، ويظهر لنا أن المراد من هذا هو اعلامهم بمكان الآية من سورتها .

٣ ـ أنه كان مكتوبا بالأحرف السبعة التى نزل عليها .

٤ ـ أن بعض من كتب لنفسه من الصحابة كتب بعض الآيات التى نسخت تلاوتها وأبقاها كما هى حيث لم يبلغه الناسخ .

***

● **السبب فى عدم جمع القرآن مرتبا فى مصحف واحد على عهد النبى ﷺ :**

والسبب فى عدم جمع القرآن الكريم مرتبا فى مصحف واحد على عهد النبى ﷺ ، هو أن النبى ﷺ كان يترقب دائما وإلى أن مات نزول شيء من القرآن عليه ، فلو أنه رُتِبَ وجُمِعَ أولا بأول لأدى ذلك إلى كثرة التبديل ، ولاستمر عليه الصلاة والسلام يرتب ويعدل كلما نزلت عليه آية ، وفى هذا من المشقة ما فيه ثم هل يعقل أن يتم ترتيب بين أجزاء الشيء الواحد وهى لم تظهر بعد كلها الى حيز الوجود ؟ .

***

(٣) الحجر : ٩

ثانيا ـ جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه :

علمت أن القرآن الكريم كتب على عهد رسول الله ﷺ ، وأنه كان مفرقا غير مجموع فى مصحف واحد ، ولقد بقى القرآن على هذه الحال الى أن كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وفيها حدث ما دعا الى جمع القرآن من جديد بين دفتى مصحف واحد .

● **السبب الذى دعا إلى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :**

والسبب الذى دعا إلى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه : هو أنه لما استحر القتل بقراء القرآن يوم اليمامة ، وقتل منهم ـ على ما قيل ـ سبعمائة ، خاف عمر رضى الله عنه أن يضيع شيء من القرآن بموت حفظته ، فأشار على أبى بكر رضى الله عنه بجمعه فوافقه بعد مراجعة وتردد ، وتم الجمع على يد زيد بن ثابت رضى الله عنه ، يدلنا على هذا ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى أرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه ـ فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ـ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والأكتاف ، والعسب ، وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** . . . . »(٤) الى آخر السورة ، فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة .

مما تقدم يتضح لنا أن الجمع الذى تم على يد زيد بن ثابت فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، إنما هو جمع ما كتب وكان مفرقا فى حياة النبى ﷺ ثم

---

(٤) التوبة : ١٢٨

نسخه مجموعا بعضه الى بعض فى مصحف واحد ، وهذا العمل أشبه ما يكون بعمل من وجد كتابا مفرق الأوراق فى بيت فجمع الأوراق بعضها الى بعض وربطها بخيط .

● **مميزات جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :**

ويمتاز جمع القرآن فى عهد أبى بكر بالمميزات الآتية :

١ ـ أنه اقتصر على ما ثبتت قرآنيته ولم تنسخ تلاوته .

٢ ـ أنه جمع بين دفتى مصحف واحد .

٣ ـ أنه جمع مرتب الآيات دون السور .

* * *

ثالثا ـ جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه :

بقى القرآن على الحالة التى جمع عليها فى عهد أبى بكر رضى الله عنه مدة خلافة عمر وصدرا من خلافة عثمان رضى الله عنهما ، وفى خلافة عثمان حدث ما دعاه ـ رضى الله عنه ـ الى جمع القرآن الكريم من جديد .

● **السبب الذى دعا الى جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه :**

والسبب الذى من أجله جمع عثمان رضى الله عنه القرآن الكريم هو أن الصحابة رضوان الله عليهم تفرقوا فى الأمصار ، وعلّم كل منهم أهل المصر الذى انتقل إليه القرآن على الوجه الذى حفظه من رسول الله ﷺ ، وترتب على ذلك اختلاف أهل الأمصار فى قراءة القرآن تبعا لاختلاف قراءة معلميهم من الصحابة ، واشتد الأمر فى ذلك وعظم اختلافهم وتشبث كل بقراءته مما كاد يوقع الفتنة بين بعض المسلمين ، كما وقع ذلك بين أهل الشام وأهل العراق فى غزوة أرمينية فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى الينا بالمصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف

رد عثمان رضى الله عنه الصحف إلى حفصه ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . قال زيد : فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصارى « **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** . . »(٥) فألحقناها بسورتها من المصحف .

وقد ورد عن ابن شهاب أنهم اختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد : التابوه وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص : التابوت ، فرفع اختلافهم الى عثمان رضى الله عنه فقال : اكتبوه بالتاء ، فانه نزل بلسان قريش .

● **الرد على من أنكر على عثمان جمعه للقرآن على حرف واحد واحراق ما عدا ذلك :**

أنكر بعض الناس على عثمان رضى الله عنه جمع الناس على مصحف واحد واحراقه ما عداه ، والحق أن هذا انكار ليس فى محله ، فعثمان رضى الله عنه كان يخشى الفتنة على المسلمين ، بسبب اختلافهم فى وجوه القراءة ، اختلافا لم يسبق له نظير فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حتى كاد يكفر بعضهم بعضا ، ولقد كان من فضل الله أن وفق عثمان رضى الله عنه لجمع القرآن الكريم على حرف واحد جمع الناس على القراءة به ، فرفع بذلك الاختلاف وجمع الكلمة ، ورحم الله به الأمة .

هذا ، ولم يعرف عن عثمان أنه استبد بهذا العمل ، بل ثبت بيقين أنه استشار الصحابة فأقروه على رأيه ورضوا فعله ، وعد ذلك من مناقبه العظيمة وآثاره الخالدة ، روى أبو بكر الأنبارى ـ فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان ـ عن سويد بن غفلة قال : « سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله ، واياكم والغلو فى عثمان وقولكم حرّاق مصاحف ، فوالله ما حرقها الا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ » . وعن عمرو بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

● **مميزات جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه :**

يمتاز جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه بالمميزات الآتية :

١ ـ الاقتصار على حرف واحد ، هو حرف قريش .

---

(٥) الأحزاب : ٢٣

٢ ـ الاقتصار على ما تواتر كونه قرآنا وعلم أنه استقر فى العرضة الأخيرة .
٣ ـ جمعه مرتب الآيات والسور على النحو الذى هو عليه الآن .

● **المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان رضى الله عنه :**

المصاحف جمع مصحف ، بضم الميم ، من أصحفه أى جمع فيه الصحف ، والصحف جمع صحيفة ، وهى قطعة من جلد أو ورق يكتب عليها ، روى أن أبا بكر رضى الله عنه استشار الناس بعد جمع القرآن فسماه مصحفا ، فصار علما على ما جمع فيه القرآن كله .

وقد اختلف فى عدد المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان رضى الله عنه ووجه بها الى الأمصار ، فقيل ـ وهو الذى صوبه ابن عاشر فى شرح الاعلان ـ انها ستة : المكى ، والشامى ، والبصرى ، والكوفى ، والمدنى العام ، والمدنى الخاص الذى احتفظ به عثمان لنفسه ، وهو المسمى بالامام . وقيل : انها ثمانية : خمسة متفق عليها ، وهى : الكوفى ، والبصرى ، والشامى ، والمدنى العام ، والمدنى الخاص . وثلاث مختلف فيها ، وهى : المكى ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن . وقيل : إنه وجه مصحفا إلى مصر .

* * *

obeikandl.com

ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره

ورد لفظ الآية فى اللغة على معان مختلفة ، منها : الآية بمعنى العلامة ، كما فى قوله تعالى « **إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم** »(١) أى علامة ملكه .

ومنها : الآية بمعنى العبرة والعظة ، كما فى قوله تعالى « **إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين** »(٢) أى لعبرة وعظة .

ومنها : الآية بمعنى الدليل ، كما فى قوله تعالى « **ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة** »(٣) أى ومن دلائل قدرته .

والآية فى اصطلاح العلماء ، طائفة من القرآن الكريم ذات مبدأ ومقطع ، مندرجة فى سورة ، وآخرها يسمى فاصلة .

ولا طريق لمعرفة آيات القرآن الكريم الا بتوقيف من الشارع ، وليس للاجتهاد دخل فى معرفة شيء من ذلك .

● **عدد آيات القرآن الكريم** : الإجماع على أن عدد آيات القرآن لا تقل عن ستة آلاف آية ، وما فوق ذلك مختلف فيه ، ففى أحد قولى المدنيين : أن عدد آيات القرآن ستة آلاف فقط ، وفى قول ثان لهم : ٦٢١٤ آية ، وقال البصريون : ٦٢٠٤ ، وقال المكيون : ٦٢١٩ ، وقال الشاميون : ٦٢٢٥ ، وقال الكوفيون : ٦٢٣٦ آية .

والسبب الذى من أجله وقع الاختلاف فى عدد الآيات ، هو أن رسول الله ﷺ كان يقف على رؤوس الآيات ليعلم أصحابه أن الآية تنتهى حيث وقف ، فاذا ما قرأ بعد ذلك ربما وصل بعض الآيات ببعضها الآخر لتمام المعنى فيظن بعض من سمعه حينئذ أن الآيتين آية واحدة .

* * *

● **ترتيب آيات القرآن الكريم** :

الاجماع على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على النحو الذى نعرفه ثابت

---

(١) البقرة : ٢٤٨ (٢) الشعراء : ٨ وآيات أخرى بعدها .

(٣) الشورى : ٢٩

obeikandl.com

بتوقيف من النبى ﷺ ، وقد قامت على ذلك أدلة كثيرة ، منها :

١ ـ ما ثبت من أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ القرآن على ترتيبه المعروف .

٢ ـ ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان « **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج** »(٤) قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ ـ يريد لم نكتبها وقد عرفت أنها منسوخة ، أو لم تدعها ، أى تتركها مكتوبة وهى منسوخة ؟ ـ قال : يا ابن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه .

٣ ـ ما أخرجه الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص ، قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، اذ شخص ببصره ، ثم صوبه ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الوضع من السورة « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى** . . . »الى آخرها(٥) .

٤ ـ ما رواه مسلم عن عمر رضى الله عنه قال : ما سألت النبى ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال : « تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء » .

٥ ـ ما رواه البخارى عن أبى مسعود عقبة بن عامر البدرى قال : قال النبى ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .

والآيتان هما : « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه** . . . »(٦) إلى آخر السورة .

* * *

● معنى السـورة :

السورة هى آيات جمعت وقرنت بعضها الى بعض حتى تمت وكملت ، وبلغت فى الطول المبلغ الذى أراده الله تعالى ، ثم فصل بينها وبين سورة أخرى « بسم الله الرحمن الرحيم » .

والسورة لا تكون الا معروفة المبدأ والنهاية ، وهى مشتقة من سور المدينة ، لأنها تحيط بآياتها كما يحيط سور المدينة بأبنيتها .

ومعرفة سور القرآن كلها بتوقيف من الشارع ولا سبيل للاجتهاد فى معرفة شيء من ذلك ، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة .

* * *

---

(٤) البقرة : ٢٤٠ (٥) النحل : ٩٠

(٦) البقرة : ٢٨٥

● **ترتيب سور القرآن** : اختلف العلماء فى ترتيب سور القرآن على ما هو عليه الآن على ثلاثة أقوال :

القول الأولى : وهو ما ذهب اليه الجمهور : أن ترتيب السور كان بتوقيف من النبى ﷺ ، فلم توضع سورة فى مكانها الذى هى فيه الا بأمر النبى ﷺ وتعليمه ، أو برمزه على حسب ما سمعوا من تلاوته .

وقد استدل الجمهور على ما ذهبوا اليه بأدلة كثيرة :

منها : أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ، ولم يخالف منهم أحد حتى من كان منهم عنده مصحف لنفسه على غير ترتيب مصحف عثمان ، فلو لم يكن هذا الترتيب الذى جرى عليه مصحف عثمان بتوقيف من الشارع لحصل من أصحاب المصاحف المرتبة على غير ترتيبه اعتراض عليه وتمسك بما فى أيديهم ، ولكن ما حدث من عدولهم عن مصاحفهم وترتيبها ، بل واحراقها دليل قوى على أن الأمر ليس للاجتهاد فيه مجال .

ومن الأدلة : ما رواه الإمام أحمد وأبو داوود عن حذيفة الثقفى قال : كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف .. الحديث ، وفيه « فقال لنا رسول الله ﷺ : طرأ علىّ حزب من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ : قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، واحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصّل من ق حتى نختم » ، فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن كان على عهد النبى ﷺ .

ومن الأدلة أيضا : أن الحواميم رتبت ولاء ، أى متتابعة ، بخلاف المسبحات فانها لم ترتب ولاء بعضها إثر بعض ، بل فصل بين سورها بسورة المجادلة والممتحنة والمنافقون ، كما أن سورتى طسم الشعراء ، وطسم القصص ، فصل بينهما بسورة النمل مع أنها أقصر من كل منهما ، ولو كان الترتيب باجتهاد لما حصل الفصل بين السور المتماثلات فى الافتتاح ، المتقاربات فى الطول أو القصر بغيرها من السور .

قال أبو بكر الأنبارى : « أنزل الله القرآن كله الى سماء الدنيا ، ثم فرقه فى بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر ، ويقف جبريل النبى ﷺ على موضع السورة والآيات ، فاتساق

السور كاتساق الآيات والحروف ، كله من النبى ﷺ ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » .

وقال ابن الحصار : « ترتيب السور ووضع الآيات فى مواضعها انما كان بالوحى » .

القول الثانى : أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن تم باجتهاد من الصحابة ، واستدل من ذهب الى هذا القول باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة قبل جمع المصحف على عهد عثمان ، فلو كان ترتيب السور بتوقيف من النبى ﷺ ما اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور ، فمثلا مصحف أُبىّ كان مبدوء بسورة الحمد ، ثم البقرة ، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ، ومصحف ابن مسعود كان مبدوء بسورة البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام ، ومصحف على كرم الله وجهه كان مبدوء بسورة اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم تبت ، ثم التكوير . . . . وهكذا ، فهذا الاختلاف دليل على أن ترتيب السور كان من اجتهاد لا عن توقيف .

ولقد أجاب أصحاب القول الأول عن هذا الدليل ، بأن اختلاف الصحابة فى ترتيب مصاحفهم ليس دليلا على أن ترتيب السور عن اجتهاد وليس عن توقيف ، لأن مصاحفهم لم يراع فيها أن تكون مصاحف تلاوة ، بل كانت مصاحف علم وتأويل ، بدليل أن منهم من كتب فى مصحفه منسوخ التلاوة ، ومنهم من كتب بعض الأدعية المأثورة ، ومنهم من كتب بعض تأويلات لبعض القرآن ، لذا لم تكن هذه المصاحف حجة فى اثبات القرآن . فكما لم يعول عليها فى زيادة أو نقص لم يعول عليها فى ترتيب السور .

القول الثالث : أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبى ﷺ ، وبعضها كان باجتهاد من الصحابة ، وقد مال ابن عطية الأندلسى الى هذا الرأى فقال : « ان كثيرا من السور قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ كالسبع الطوال ، والحواميم ، والمفصّل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون فوض الأمر فيه الى الأمة بعده » .

وقد استدل أصحاب هذا القول بما رواه الامام أحمد والترمذى وغيرهما عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى ، والى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان اذا أُنزل عليه

شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتهما فى السبع الطوال - فهذا يدل على أن ترتيب الأنفال مع التوبة كان باجتهاد لعدم البيان من الرسول ﷺ . وقد رد الجمهور - أصحاب القول الأول - هذا الحديث بأنه حديث غريب لا يعرف إلا من رواية يزيد الفارسى عن ابن عباس ، ويزيد هذا مجهول الحال ، فلا يصح الاعتماد على حديثه .

* * *

مصادر التفسير والعلوم التى يحتاج إليها المفسر

المصادر التى يجب على المفسر أن يرجع اليها عند شرحه للقرآن الكريم حتى يكون تفسيره جائزا ومقبولا هى ما يلى :

أولا : الرجوع الى القرآن نفسه ، وذلك بأن ينظر فى القرآن نظرة فاحص مدقق ، ويجمع الآيات التى فى موضوع واحد ، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر ، فان من الآيات ما أجمل فى مكان وفسر فى مكان آخر ، ومنها ما أوجز فى موضع وبسط فى موضع آخر ، فيحمل المجمل على المفسر ، ويشرح ما جاء موجزا بما جاء مسهبا مفصلا ، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فان عدل المفسر عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ وقال برأيه المذموم .

ثانيا : النقل عن الرسول ﷺ مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فانه كثير ، فان وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ، ويقول برأيه ، لأن الرسول مؤيد من ربه ، وموكول اليه أن يبين للناس ما نزل اليهم ، فمن ترك ما صح عن النبى ﷺ فى التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأى المذموم .

ثالثا : الأخذ بما صح عن الصحابة فى التفسير ، ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك لأن فى التفسير كثيرا مما وضع على الصحابة كذبا واختلاقا ، فان وقع على قول صحيح لصحابى فى التفسير ، فليس له أن يهجره ويقول برأيه ، لأن الصحابة أعلم بكتاب الله وأدرى بأسرار التنزيل ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالخلفاء الراشدين وأُبَىّ وابن مسعود وابن عباس وغيرهم .

رابعا : الأخذ بمطلق اللغة ، لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، فعلى المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها الى معان خارجة محتملة ، يدل عليها القليل من كلام العرب ، ولا توجد غالبا إلا فى الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها ، روى عن الامام مالك رضى الله عنه أنه قال : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله الا جعلته نكالا » .

خامسا : التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذى دعا به النبى ﷺ لابن عباس حيث قال : « اللهم فقهه فى

الدين وعلمه التأويل » والذى عناه على رضى الله عنه بقوله ـ حين سئل : هل عندكم عن رسول الله ﷺ شيء بعد القرآن ؟ ـ قال : « لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة الا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلا فى القرآن ».

❊ ❊ ❊

● **العلوم التى يحتاج اليها المفسر** :

اشترط العلماء فى المفسر الذى يفسر القرآن برأيه دون أن يقتصر على الوقوف عند حدود المأثور أن يكون ملما بجملة من العلوم التى يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيرا عقليا مقبولا ، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ ، وتحميه من القول على الله بغير علم ، واليك هذه العلوم :

١ ـ **علم اللغة** : فبه يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب ».

٢ ـ **علم النحو** : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلابد من اعتباره .

٣ ـ **علم الصرف** : وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ ، حكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال : « من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله تعالى: « **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** »(١) جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم ، قال : وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أمّاً لا يجمع على إمام .

٤ ـ **الاشتقاق** : لأن الاسم اذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما كالمسيح مثلا هل هو من السياحة أو من المسح ؟

٥ ـ **علوم البلاغة الثلاثة « المعانى ، والبيان ، والبديع »** : وهى من أهم ما يحتاج اليه المفسر ، لأنه لابد من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم .

٦ ـ **علم القراءات** : إذ بمعرفتها يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

٧ ـ **علم الكلام** : وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد وما الى ذلك

---

(١) الإسراء : ٧١

نظرة صائبة ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات .

٨ ـ **علم أصول الفقه** : إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها ، ويعرف الإجمال والتبيين ، والتعميم والتخصيص ، والإطلاق والتقييد ، وكل ما سوى ذلك مما يرجع الى هذا العلم .

٩ ـ **علم أسباب النزول** : إذ أن معرفة سبب النزول تعين على فهم المراد من الآية .

١٠ ـ **علم القصص** : لأن معرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن .

١١ ـ **علم الناسخ والمنسوخ** : فمن لا يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال ، والإضلال .

١٢ ـ **الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم من القرآن** : ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه .

١٣ ـ **علم الموهبة** : وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، واليه الاشارة بقوله تعالى « **واتقوا الله، ويعلمكم الله** »[٢] وبقوله عليه الصلاة والسلام « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

***

---

(٢) البقرة : ٢٨٢

الإسرائيليات ، ومدى الصلة بينها وبين القرآن الكريم

● تمهيـد :

لفظ الإسرائيليات وان كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير ، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه ، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل فنريد به ما يعم اللون اليهودى ، واللون النصرانى للتفسير ، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية .

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى ، فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه ، وذلك لكثرة أهله ، وظهور أمرهم ، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الاسلام الى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

كان لليهود ثقافة دينية ، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك ، وكلتا الثقافتين كان لهما أثر فى التفسير الى حد ما .

أما اليهود فان ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة ، وكان لهم بجانبها سنن ونصائح دونت وعرفت باسم التلمود ، ووجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودى والقصص والتاريخ والتشريع والأساطير .

وأما النصارى فكانت ثقافتهم تعتمد - فى الغالب الأهم - على الإنجيل وما كتب عليه من شروح كانت فيما بعد منبعا من منابع الثقافة النصرانية ، كما وجد بجوار ذلك قصص وأخبار وتعاليم زعم النصارى أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام .

واذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والانجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام وذلك على اختلاف بينهما فى الاجمال والتفصيل ، فالقرآن اذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلا - فانه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة أو الإنجيل ، فتراه يقتصر على موضع العظة ، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فلا يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، كما أنه لا يذكر - فى الغالب - أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض

الحوادث ، ولا يدخل فى تفاصيل الجزئيات بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع ويتعلق بموضع العبرة .

واذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن والتوراة ، أو القرآن والإنجيل لوجدنا التوراة والإنجيل قد عرضا لتفصيل الحوادث وذكر جزئياتها ، وأسماء من لهم صلة بها ، وموطن وقوعها ، وغير ذلك مما طواه القرآن ولم يتطرق اليه . . فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز فى القرآن ، ويجدون بجانب ذلك تفصيلا لهذا الإيجاز فى التوراة أو فى الإنجيل أو فيما يتصل بهما من شروح ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارح لهذا الإيجاز وموضح لما فيه من غموض ؟ . . لا ، بل لابد لهم من الاقتباس ، وشرح ما أوجز فى القرآن بما فصل فى التوراة أو الإنجيل أو شرحهما . . ولكن على نحو يتضح لك فيما بعد .

* * *

● **مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره :**

نستطيع أن نقول إن دخول الإسرائيليات فى التفسير أمر يرجع الى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، وذلك نظرا لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى ذكر بعض المسائل ، فكان الصحابى اذا مر بقصة من قصص القرآن يجد فى نفسه ميلا الى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن من تفاصيلها ، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الاسلام وحملوا الى أهله ما معهم من ثقافة دينية ، فألقوا اليهم بما ألقوا من الأخبار والقصص الدينى .

غير أن هؤلاء الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شىء ، ولم يقبلوا منهم كل شىء ، بل كانوا يسألونهم عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحا للقصة ، وبيانا لما أجمله القرآن منها ، مع توقفهم فيما يحتمل الصدق والكذب ، وعدم حكمهم عليه بواحد من الأمرين ، امتثالا لقول النبى ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : « **آمنا بالله وما أنزل الينا** . . » الآية[1] .

كما أنهم لم يسألوهم عن شىء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالاحكام الشرعية اللهم الا اذا كان على سبيل الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن الكريم .

كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك الى سؤال أهل الكتاب ، لأنه اذا ثبت الشىء عن الرسول ﷺ فليس لهم أن يعدلوا عنه الى

---

(١) البقرة : ١٣٦

غيره ، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث ، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، ومقدار سفينة نوح عليه السلام ونوع خشبها ، ونحو ذلك مما لا يعود على الانسان من معرفته فائدة .

وكان الصحابة لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة الاسلامية ، بل بلغ بهم الأمر الى أنهم كانوا اذا سألوا أهل الكتاب عن شيء فأجابوا عنه خطأ ردوا عليهم خطأهم وبينوا لهم وجه الصواب فيه .

ومهما يكن من شيء فإن الصحابة - رضى الله عنهم - لم يخرجوا عن دائرة الجواز التى حدها لهم رسول الله ﷺ ، وعما فهموه من الإباحة فى قوله عليه الصلاة والسلام : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا بنى إسرائيل ولا تكذبوهم ، وقولوا : « **آمنا بالله وما أنزل إلينا** . . . » الآية .

أما التابعون ، فقد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير ، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الاسلام ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية ، فظهرت فى هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة فى التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض ، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ الذى نسبه أبو حاتم الى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى ، وجعلها موافقة لما فى كتبهم .

ثم جاء من بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات وأفرط فى الأخذ منها الى درجة جعلتهم لا يردون قولا ، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره العقل . . . واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بنقل هذه الأخبار حتى أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة . . . الى أن جاء دور التدوين للتفسير فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلى الذى كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها .

* * *

● **أثر الإسرائيليات فى التفسير :**

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيىء فى التفسير ، وذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة ، بل زادوا فى ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع ، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها ، لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وفى الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير ، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح ، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لا يكاد يصح شيء منها الى بعض من أسلم من أهل الكتاب جعلت بعض الناس ينظر اليهم بعين الاتهام والريبة .

***

● **قيمة ما يروى من الإسرائيليات :**

تنقسم الأخبار الإسرائيلية الى أقسام ثلاثة وهى ما يأتى :

القسم الأول : ما يعلم صحته بأن نقل مثله عن النبى ﷺ نقلا صحيحا ، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صريحا على لسان النبى ﷺ كما عند البخارى . وهذا القسم صحيح مقبول .

القسم الثانى : ما يعلم كذبه بأن يناقِض ما عرفناه من شرعنا ، أو كان لا يتفق مع العقل . وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثانى . وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه ، لأنه ربما كان كذبا فنقع فى الحرج لو صدقناه ، وربما كان صدقا فنقع فى الحرج لو كذبناه ، وتجوز روايته لقوله عليه الصلاة والسلام : « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج » وهذا محمول على ما لم يُعلم كذبه ، لأنه لا يعقل أن يبيح لنا الرسول ﷺ رواية المكذوب .

ثم اذا جاء شيء من هذا القبيل ـ أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده ـ عن أحد من الصحابة بطريق صحيح ، فان كان قد جزم به فهو كالقسم الأول يُقبل ولا يُرد ، لأنه لا يعقل أن يكون الصحابى قد أخذه